المطلب الخامس

أثر الوقف على المستشفيات

المستشفيات والمصحات والمستوصفات أماكن لعلاج المرضى، وتخفيف آلامهم -بإذن الله تعالى- وهذه الأماكن ترتادها فئة من الناس تحتاج إلى مزيد من الرحمة والمعاملة الإنسانية العالية خاصة وأن المرض يؤدي إلى حالة من الوهن، وقد يتسرب اليأس إلى نفس المريض بسبب ما ألـمَّ به من مرض وألم، فيشعر باليأس والقنوط فتسوء حالته، ولكن إذا وجد من يزرع الأمل في قلبه ويطمعه في رحمة ربه، ويقوى جانب العقيدة في نفسه، ويؤكد له أن الأمر بيد الله تعالى الذي يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ ﴾ [2].

"ومن هذا المنطلق فإن الناظر في التاريخ الإسلامي يدرك أن الوقف على المستشفيات قد نـال اهتماماً كبيراً في المجتمع الإسلامي " [3] "ولم يقف اهتمام الأوقاف بالرعاية الصحية عند حـد معالجة المرضى وتوفير الدواء، بل تعداه إلى النهوض بعلم الطب وتعليمه، سواءً في داخل (البيمارستانات) حيث يرتبط التدريس النظري بالعملي أو في مدارس متخصصة أنشئت لغرض تعلـيم الطب، وهو ما سمي بالمدارس الطبية المتخصصة، وكان من أبرز تلك المدارس المدرسة الداخورية[4] بدمشق، ومدرسة باتكين الطبية بالبصرة، والمهذبية بمصر" [5].

---

(١) سورة يس الآية ٨٢.

(٢) سورة الشعراء الآيات ٧٨-٨١

(٣) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار- أحمد بن علي المقريزي- ٢/٤٠٥.

(٤) أوقـف مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد المعروف بالداخور شيخ الأطباء ورئيسهم دارة بدمشق (المدرسة الداخورية) شرقي سوق المناخليين عند الصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي ووقف لها ضياعًا وعدة أماكن يستغل منها ويتصرف في مصالحها (تاريخ البيمارستانات ص٣٩).

(٥) انظـر: المـدارس الطبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية- إبراهيم المزيني ٣٤٩-٤١١ مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عدد ١٣ ذو القعدة ١٤١٥هـ.

وقد كانت المستشفيات تعرف في السابق باسم البيمارستانات –كما سبق الإشارة لذلك–، وكان هناك تلازم بين إزدهار الأوقاف والنهوض بمستوى المستشفيات وازدهار الطب، وقد نالت المستشفيات عناية كبيرة من الوقف، حيث خصصت الأوقاف الكثيرة للنهوض بالخدمات الصحية، وبالعلوم الطبية وكان لذلك الأثر الإيجابي على الرعاية الصحية آنذاك، إن الاستفادة من التبرعات والهبات من المؤسسات الخيرية والتجارية والأفراد تسهم في دعم وإقامة المشروعات الصحية" (١).

"ومن النماذج الحديثة للأوقاف الإسلامية في مجال المستشفيات الجامعية، كلية الطب ومستشفى دار المقاصد بلبنان حيث يضم ٢٠٠ سرير و ٦٥ طبيباً و١٨٥ ممرضاً و ١١٥ موظفاً بالإضافة إلى قاعدات التدريس والمحاضرات وبقية المرافق" (٢).

وإذا نظرنا إلى المستشفيات في هذا العصر، وجدنا أنها بحاجة إلى دعم الأوقاف والذي يتم من خلاله توفير الخدمات الصحية بصورة طيبة وشبه مجانية أو مجانية للفقراء، خاصة في المجتمعات غير الإسلامية التي يسيطر عليه النصارى، وتنشط فيها إرساليات التنصير، وحتى ندرك أهمية المستشفيات كميدان من ميادين الدعوة ننظر إلى اهتمام المؤسسات التنصيرية بهذا المجال:

ففي السابق في المراحل الأولى للتنصير لم يكن ثمة اهتمام بقطاع المستشفيات والخدمات التي تقدمها إلا أن اهتمام النصارى بهذا المجال لم يظهر إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي.

"وكان الأمريكان أول من انحرف بالطب عن أهدافه الإنسان النبيلة واستخدموه في أغراضهم التنصيرية، وذلك حينما بدأوا ينشؤون العيادات الطبية في سيواس بتركيا عام ١٨٥٩م" (٣).

---

(١) انظر: الوقف ودعم مؤسسات الرعاية الصحية–د. عبد العزيز بن حمود الشثري، ص٢٧–٢٩.

(٢) الوقف الإسلامي في وضعه القانوني والإداري والمالي وأوضاع عقارات جمعية المقاصد الخيرية –لبنان – محمد محي الدين رمضان ص٣٧١.

(٣) انظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية– مصطفى الخالدي وفروخ–ص٥٩.

إن إرساليات التنصير تعتقد أن الطبيب المنصِّر بإمكانه أن يصل إلى جميع فئات المسلمين بواسطة من يعالجهم، لذا فهم يفترضون أن الطبيب ينبغي أن يكون نسخة حية للإنجيل، ولا شك أن ذلك يعكس اهتمام المنصرين بمهنة الطب والعلاج زعماً منهم بأن المسيح عليه السلام كان طبيباً ومداوياً، وإن ذلك الكلام غير صحيح؛ فالمسيح عليه السلام كان نبياً أيده الله عز وجل ببعض المعجزات الحسية كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله قال تعالى: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١).

قد كشفت إحدى خبيرات الأمم المتحدة في تقرير عن التنصير في كينيا حجم التركيز على العمل في المستشفيات لصالح التنصير بقولها:"أن هذه البلاد-كينيا- وإن كانت مفتقرة عموماً إلى معاونة كبيرة للإرتقاء بالتعليم بأنواعه، والنواحي الاجتماعية والصحية، واستصلاح الأراضي وزيادة الدخل، إلا أن البعثات التنصيرية تغلغلت في كافة أنحاء هذه البلاد حيث تبنى المستشفيات والمستوصفات وتساندها الهيئات الدولية المختلفة، وكل هؤلاء يعملون على نشر المسيحية" (٢).

ولذا فإن بعثات التنصير تعمل على صبغ العمل الطبي في المستشفيات بالصبغة النصرانية من حيث الملصقات النصرانية للصليب وصور للمسيح وأمه على حد زعم النصارى، هذا فضلاً عن عرض الأفلام السينمائية عن المسيح وقدرته على الشفاء مستغلين في ذلك جهل الناس وحاجتهم وغير ذلك من أنماط الاستغلال والتزييف والمغالطة ولعلنا من خلال هذا الحديث الموجز عن استغلال النصارى لميدان المستشفيات لصالح التنصير نكون قد أدركنا خطورة هذا الميدان الذي يعد من المنافذ الخطيرة التي يمرق من خلالها التنصير إلى فقراء المسلمين وضعافهم ممن وقعوا فريسة للمرض والتنصير.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٢) انظر: التنصير في القرن الأفريقي ومواجهته- سيد أحمد يحيى -ص ٨٤-ط١-١٤٠٦هـ-١٩٨٦م- دار العمير للثقافة والنشر- جدة.

لـــذلك فإن للوقف على المستشفيات ودعم خدماتها أثر عظيم في الدعوة إلى الله تعالى، وإن الوقـــف على القوافل العلاجية والمخيمات الطبية والمستشفيات المتنقلة لـــه أثره الكبير في الدعـــوة إلى الله، خاصـــة في المناطق النائية في آسيا وأفريقيا التي تحتاج إلى الوجود الإسلامي، والخـــدمات الطبية بدلاً من استغلال المنصرين لهذا الميدان، وإكراه المسلمين وغير المسلمين من الوثنـــيين وغيرهم على قبول النصرانية، وفي تصوري أن الوقف على المستشفيات لا يقل أهمية عـــن الوقف على المساجد أو أعمال البر الأخرى، فهناك تصور خاطئ لدى بعض المسلمين أن الوقـــف يقتصر على أمور معينة، مثل المساجد والكتب العلمية وغير ذلك مما هو مشهور بين المسلمين. وأن هذا هو الأصل وفيه الأجر والمثوبة وغيره دونه في الأجر والمثوبة.

ولذا فإن توعية المسلمين بأهمية الوقف على المستشفيات والمخيمات، والقوافل العلاجية والمستـــشفيات الثابتة والمتنقلة، أمرٌ هامٌ وضروري؛ حيث يسهم ذلك في إنقاذ المسلمين وغير المسلمين من خطط النصارى، ويكون ذلك باعثاً على الثبات على الإسلام بالنسبة للمسلمين، وقـــبول الإســـلام بالنسبة لغير المسلمين، حينما تقدم مثل هذه الخدمات الطبية باسم الإسلام، ومجردة من أي نوع من الإكراه للمدعو.

وفي حـــديث للأمين العام لهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية –د. عدنان بن خليل الباشا – ســـئل: هـــل تقـــوم الهيـــئة بتقديم المنح الدراسية للطلاب الأفارقة في العلوم المدنية والشرعية فأجاب:-

هذا توجه محمود تؤيده الهيئة وتدعو إليه وتمارسه، ليقينها أن هذه التخصصات تسهم في النهضة التنموية التي تحتاج إليها الدول الأفريقية.

وعلـــى سبيل المثال: فقد سبق أن كفلت الهيئة عدداً كبيراً من الطلاب لدراسة الطب وعلـــومه في أوغـــندا، كما كفلت بعض الطلاب الأفارقة المتفوقين لدراسة الطب في الأردن، ومعلوم أن المنح الدراسية من وسائل تدعيم الارتباط الثقافي، وربط الخريجين بالدول التي تعلموا فـــيها ولغـــتها وحضارتها، ولكن تكمن الإشكالية في ارتفاع تكلفة الدراسة لتلك العلوم، وفي الكـــثير من الدول الإسلامية فإن المعاهد والمؤسسات العلمية الخاصة بتلك التخصصات تكفي

بالكاد لتأمين احتياجات الدولة من الكوادر.

أما بالنسبة للمؤسسة الخيرية التي تعتمد على تبرعات المحسنين مثل الهيئة –هيئة الإغاثة– فعادة ما تواجه برغبة المتبرعين في كفالة طلاب العلم الشرعي تحديداً طلباً للثواب والقربى إلى الله ﷻ وبالتالي فالأمر يحتاج إلى دراسة شاملة لكافة الجوانب وتضافر جهود الجهات المعنية لوضع الحلول المناسبة" [1].

إنه لابد من التخطيط للبرامج الصحية لتسير موازية للبرامج الدعوية وهذا يتطلب الدعم المالي الكافي لتنفيذ هذا التخطيط الذي تمليه حاجة المسلمين في أنحاء متفرقة من العالم ولما كانت المستشفيات من الميادين الهامة في الدعوة إلى الله "فقد بات من الأهمية بمكان أن توجد إدارة للدعوة والإرشاد الشرعي في عموم المستشفيات" [2] يقوم عليها متخصصون في الشريعة وتكون مهمتها التعاون مع الإدارة الطبية والإدارة العامة للمستشفى، ومن المجالات والمهام التي ينبغي أن تنهض بها هذه الإدارة مايلي:-

-العناية الشرعية بالمرضى وذلك بتوضيح ما يتصل بمسائل العبادة.

- العمل على رفع معنويات المرضى وتذكيرهم بما جاء من فضل المرض والصبر عليه، وبث روح التفاؤل فيما بينهم ودفع اليأس في ضوء ما جاء من النصوص الشرعية.

- الاستجابة لمن أراد كتابة وصيته من المرضى وتمكينه من ذلك وتوثيق الوصية في الدوائر الشرعية.

- الإشراف على طباعة الرسائل المناسبة وتوزيعها للموضوعات التي يحتاجها المرضى.

- القرب والحضور لدى الاستدعاء عند المرضى الذين يشرفون على الموت، وذلك لتذكيرهم بما ينبغي من حسن الظن بالله تعالى.

---

(١) انظر: مجلة الدعوة ص ٣٤-العدد ١٨٦٢-٢٦ رجب ١٤٢٣هـ- ٣ اكتوبر٢٠٠٢م.

(٢) صدر قرار وزاري لوزير الصحة د. أسامة شبكشي بإنشاء إدارة للدعوة والإرشاد الشرعي في عموم المستشفيات في المملكة العربية السعودية في شهر شوال عام ١٤٢١هـ (مجلة الدعوة –ص٢٥-١٨٤٨-١٦ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ- ٢٧ يونيو ٢٠٠٢م.

- القـيام بالإجابة على أسئلة المرضى واستفتاءاتهم، بعد تخصيص رقم داخلي موحد يمكن من خلاله الإجابة عن تساؤلات المرضى.

الـتعاون مع إدارة المستشفى لاقتراح وإيجاد الإجراءات التنفيذية للحيلولة دون وجود المحظورات الشرعية؛ كالاختلاط والخلوة ونحوها.

- إيجاد مكتب خاص في أقسام النساء ليعمل فيه العدد المناسب من خريجات الكليات الشرعية للقيام بالدعوة والإرشاد الشرعي في أقسام النساء.

- إيجـاد قسم خاص لمتابعة أحوال غير المسلمين من العاملين في المستشفى، ودعوتهم للإسلام وبـيان محاسنه لهم، وترتيب إجراءات إشهار إسلامهم والتعاون في ذلك مع وزارة الشؤون الإسلامية ومكاتب دعوة وتوعية الجاليات" [1] .

إن هـذه الإدارة ينبغـي أن توجد في كل المستشفيات أو المستوصفات حسب حجم المستشفى أو المستوصف، المهم أن تفعَّل وظيفة مثل هذه الإدارة الدعوية ليكون لها الأثر الطيب في دعوة المرضى وغيرهم في ميدان المستشفيات.

"لقد انتشرت البيمارستانات في العالم الإسلام منذ القرن الثالث الهجري وكانت مصدر إسعاد لأبناء المجتمع الإسلام إذ يتلقى المريض فيها العلاج والرعاية التامة والكسوة والغذاء" [2].

وهـذا مايؤكد على أهمية الوقف على هذا الميدان الدعوي الهام- المستشفيات- حتى تتم عملية الدعوة إلى الله في المستشفيات باعتبارها من الميادين الدعوية الهامة.

---

(١) انظر: مجلة الدعوة ص ٢٤-٢٥ العدد ١٨٤٨-١٦ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ-٢٧ يونيو ٢٠٠٢م.

- انظـر : الوقـف وأثره في تشييد بنية الحضارة الإسلامية-د. إبراهيم بن محمد المزيني ص٦٠٨- ضمن بحوث نـدوة المكتـبات الوقفية في المملكة العربية السعودية- المنعقدة في المدينة المنورة في المدة من ٢٥-٢٧- محرم ١٤٢٠هـ.

- وفـيات الأعـيان وأنباء الزمان- شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد أبي بكر بن خلكان-٥٤/٤- تحقيق- إحسان عباس- بدون رقم طبع- ١٩٧٢م- دار صادر -بيروت.

(٢) رحلة ابن جبير -ص٢٠١.